الاسكندرية فى عصر البطالمة

بعض مظاهر الحضارة بها(١)

تأليف زكى على

انفردت الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد بنظمها الخاصة وساعدها على ذلك ظروف تأسيسها على أن تكون مدينة هيلينية حقة متمتعة بجميع الخصائص والميزات التى تتوفر فى المدينة (polis) أينما تنشأ، وكان اتخاذها عاصمة للبلاد المصرية وهى نائية واقعة على تخوم هذه البلاد وليست فى صميمها وقلبها حتى حدا ذلك بالرومان فأسموها بالاسكندرية الواقعة على تخـوم مصر (Alexandria ad Aegyptum) — مدعاة لـكثير من التناقض فى نظمهـا ومظاهر الحضارة فيها وسببا فى كثير من التعقيد في تسيير دفة الأمور بها وتعطيل حيثاتها التي أصبحت، في ظل سلطان ملوك البطالمة الذين كانوا يقيمون بين ظهرانى الـكندريين ، غير قادرة على أن تعصى لهم أمرا .

القوانين المرعيه بالاسكندرية

وكان للاسكندرية محاكمها الخاصة وقوانينها التى تطبق على السـكندريين وحدهم ، والتي عرفت فى مجموعهـا بقانون المدينة (Politikos nomos) ، وكانت هذه القوانين معترفا بها حتى في المحاكم القضائية العادية التابعة للملك من خريماتستاي (Chrematistae) وهى التى تنظر فى قضـايا اليونانيين ، أو كوينوديكيون

(١) تناولت في مقالي السابق الظروف التى احاطت بتأسيس الاسكندرية والعـوامل التى حدّت بالاسكندر فجعلته يختار هذا الموقع بالذات وعرجت على طبوغرافية المدينة ووصف بعض معالمها في ضوء ماجاء فى سترابون وها انذا اتناول نواحى اخرى.

(Koinodikion) وهى المحاكم المختلطة التى كانت تنظر فى القضايا بين اليونانيين وغيرهم من الأجانب ، او محاكم وطنية ـ لاوكريتاي (Laocritae) وهى التي كانت تنظر فى قضايا الوطنيين من المصريين ، وكان الأساس فى قانون مدينة الاسكندرية لحد كبير مستمداً من القانون الأثيني ، وهو السائد في أتيكا ببلاد اليونان مضافا اليه بعض تغييرات وتعديلات مشتقة فى بعض الاحيان من غير نظم أتيكا وفى بعض أخرى روعى فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار في المدينة من قرارات فى مجالسهم وتسمى هذه القرارات (psephismata) ، علي أن السكان المقيمين فى نطاق هذه المدينة الحرة كانوا يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر.

وأنه لمن حسن الحظ أن حفظت لنا الأيام بعض هذه القوانين التى توفرت علي نشرها احدى الجامعات(١) وأصبحت تعرف ببردية هالنسيس (Papyrus Halensis) . وتحتوي هذه الوثيقة الهامة على مجموعة من المقتطفات من هذه القوانين المدنية واللوائح التى كانت تطبق علي أحرار المدينة ومن يلوذ بهم من اتباع وعبيد، ولكن لا يوجد أى دليل قاطع فى أمر الجهة التى أصدرت هذه القوانين، وهل هى من عمل مجلس الأحرار فى المدينة أم أنها جاءت نتيجة فرض الملك لارادته على هذا المجلس. ونظرا إلى أنها تلقي ضوءا على حياة السكان فى مدينة الاسكندرية وتنظم العلاقات بينهم فتأخذ البعض بالشدة بينما ترفق مع البعض الآخر، فانا نؤثر أن نقتبس منها بعض أحكامها على الوجه الآتي :

---

(١) جامعة هالي (Halle) بالمانيا التي نشرت هذه الوثائق القانونية عام ١٩١٣ تحت عنوان (Dikaiomata) ومعناها القوانين والالتزامات

الحقوق القانونيه لبعض طبقات السكان فى الاسكندرية(١)

« لا يجوز لاحد ان يقيم الدعوى علي أحد آخر ممن أنقذهم الملك فى خدمته ، لا على اشخاصهم ولا على ضامنيهم ، كما لا يحق لمن يوكل اليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقى القبض على هؤلاء .

« وكذلك الحال إذا أقام بعض الناس الدعوي ضد ذرية هؤلاء الغائبين وآلهم أو ضد ضامنيهم فيما يتعلق بأمور كانت موضوع شكوي وقعت عند ما كان أولئك الذين رحلوا عن ديارهم لا يزالون مقيمين بين ظهرانيهم ، فلا يجوز [حينئذ] ان ترفع هذه الدعاوى أمام ساحة القضاء ما لم يكن قد حدث ان هؤلاء بوصف كونهم من الآل والأتباع قد حصلوا لأنفسهم علي حقوق [مكتسبة] بالتقاضى مع آخرين بشأن أمور كانت موضوع النزاع فى الوقت المذكور. فاذا كانت الدعوي ضد أمثال هؤلاء فلتقدم للقضاء .

« وإذا ادعى البعض انتماءهم لطبقة الآل والاتباع فعلى القضاة الفصل فى هذا الموضوع ، فاذا تبين أنهم ينتمون لهذه الطبقة وإذا ثبت أن الأمور موضوع النزاع قد وقعت وقت ما كان أولئك الذين رحلوا عنهم لا يزالون يقيمون بين ظهرانيهم ولم يكونوا قد حصلوا بعدُ علي الاقتصاص منهم بالقانون كما هو مذكور أعلاه ، فليكن مصير هذه الدعاوى إلى التأجيل حتى يعود أولئك الذين فارقوهم . أما رسوم الدعوى وقدرها العشر أو جزء من خمسة عشر فيستردها دافعوها(٢) .

(١) من برديها للنسيس ١٣٤ ، ١ ـ ١٦٥ ترجمة النص المنشور فى «البردى المختار» (Select Papyri) لكل من هنت وادجار (Hunt & Edgar)

(٢) هذه الرسوم هي نسبة مئوية مقررة بحسب المبلغ موضوع النزاع وتدفع تأمينا من قبل طرفي النزاع قبل اجراء المحاكمة لتغطية النفقات اللازمة للمحكمة ، على أن يسترد المحكوم اصالحه مبلغه من المحكوم عليه

«وكل الدعاوى التي يرفعها آخرون ضد الاتباع بعد رحيل أصحاب الولاية عليهم وتركهم من بعدهم أو الدعاوي التي يرفعها الاتباع ضد آخرين ، مدعين عليهم بأنهم قد الحقوا بهم اضرارا بعد ترك أوليائهم لهم — كل هذه الدعاوى يكون مصيرها النظر أمام محكمة الاختصاص للفصل فيها ، واذا حدث ان كان الملك قد انفذ بعض الاشخاص فى مهمة بعد اقامتهم الدعوى ولم تكن المحكمة قد نظرتها بعد فان لهم حق الاختيار فى استرداد رسوم التأمين من العشر أو الجزء من الخمسة عشر ، على أن تؤجل قضاياهم حتي يعودوا، على ألا يُقَدَّموا الى المحكمة قبل أن يودع من جديد اولئك الذين رفعوا الدعوى رسوم العشر أو الجزء من الخمسة عشر التي كانوا قد استردوها من قبل .

« فاذا كان أصحاب الدعوي ممن يقيمون فى الريف[1] (Chora) ثم انفذهم الملك فى مهمة قبل أن تقدم هذه الدعاوي الى المحكمة فانها تؤجل بنفس الطريقة الى أن يعودوا ، وكل اولئك الذين منحوا رعوية مدينة الاسكندرية وكانوا قد انضووا في لواء الجيش فأمرهم يجري على النحو الآتى : من يتقدم منهم بالشكوى بصدد مرتباتهم ورواتبهم العينية من غلال وما يكون قد آل اليهم من الاموال والغلال التى أضيفت لحسابهم — وكان خصومهم فى خدمة الجيش كذلك ممن منحوا رعوية مدينة الاسكندرية، فان المقاضة تجرى أمام المحاكم المخصصة للاجانب فيأخذون مالهم ويدفعون ما عليهم ، على أن يتم تنفيذ الاحكام وفق الامر الملكى[2]»

---

(١) الريف هنا بمعناه الواسع ويشمل أى جزء من البلاد المصريه فيما عدا الاسكندرية التى كانت تعتبر المدينة ، وما عداها فهو ريف مهما بلغ بها يلزمها من حاجيات واقوات لضمان كفايتها الاقتصادية واستقلالها السياسى وذلك طبقا لما جري عليه العرف عند اليونان .

(٢) كانت هناك اوامر ملكية تسمي (Prostagmata), (Diagrammata) وتتناول شتي المسائل من اقتصادية وقضائية وتنظم مناحى الحياة في مصر البطلمية وهذا الامر الملكي الذى تشير اليه هذه البردية كان شاملا للتعليمات الواجب اتباعها فيما يختص بالاجراءات القانونية.

عقوبات التعدى في قانون الاسكندرية (١)

«التهديد بالحديد: اذا هدد رجل حر زميلا له بآلة من حديد أونحاس اوبقطعة من الحجر أو الخشب فعقابه دفع مائة دراخمة اذا خسر دعواه. بيد انه اذا ارتكب عبد من ذكر او انثى أو أمة شيئا من ذلك ضد حر أو حرة فعقابه ضرب السياط ، ولايقل ذلك عن مائة سوط، والا فعلى ولى المذنب اذا ما خسر دعواه ان يدفع لمن لحق به الضرر ضعف الغرامة المقررة على الحر .

«إضرار السكير بالغير : اذا تعدي سكير على آخر فاصابه بضرر فى موضع من جسده سواء أكان ذلك فى سكون الليل أم فى حرم مقدس أم في السوق العامة فجزاؤه دفع ضعف الغرامة المقررة .

«اعتداء العبد على الحر : اذا اعتدى عبد أو أمة بالضرب على حر أو حرة فجزاء المعتدى ان يُضرب مائة سوط على الاقل ، اما اذا اعترف سيد العبد بالواقعة فعليه هو ان يدفع بدلا من العبد التابع له ضعف العقوبة المقررة على الحر ، أما اذا دفع بعدم صحة الواقعة ، فللشاكى ان يرفع الامر للقضاء ويطلب تعويضا قدره مائة دراخمة عن كل لكزة أو لكمة اصابته ، واذا أدين سيد العبد فعقابه ان يدفع ثلاثة امثال هذا المبلغ دون مراعاة لتقدير المحكمة . اما فى حالة تعدد اللكمات فللشاكى الحق فى ان يقدر قيمة التعويض المطلوب ، عند رفع القضية ، وعلى سيد العبد أن يدفع ثلاثة امثال ما قد تقرره المحكمه من تعويض .

«العراك بين الاحرار: اذا تحرش حر او حرة فتعدى بالضرب على حر أوحرة فعقاب البادي بالعدوان ، اذا ما أدين ، مائة دراخمة دون مراعاة لتقدير المحكمة .

« واذا تعدى الضرب لاكثر من لكمة ، فللشاكى عند رفع دعواه للقضاء أن

(١) مقتبس من برديه هالنسيس I ، ١٨٦ — ٢١٣ في «البردى المختار»

يقدر هو نفسه مبلغ الضرر الناجم عن الضرب ، وعلي المتهم أن يدفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

« وإذا اعتدى احد علي موظف عمومى من موظفي المدينة فى اثناء قيامه بمهام منصبه الادارى فجزاؤه اذا ما حكم بادانته دفع ثلاثة أمثال الغرامة المقررة .

«جزاء القِحَة: اذا تعدي أحد علي آخر بالسب غير المنصوص عنه في القانون فللطرف المعتدى عليه ، عند رفع دعواه ، أن يقدر ما اصابه من ضرر ، وعليه فوق ذلك ان يبين بالذات كيف استهدف للسب وتاريخ حدوث ذلك ، واذا أدين المتهم فجزاؤه دفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من غرامة» .

تلك بعض أمثلة من القوانين المرعية في مدينة الاسكندرية فى عصر البطالمة ، وهى تنظم ناحية من حياة السكان بها . وكان هؤلاء ولا ريب ، يمثلون اخلاطا وانواعا جنسية عديدة، وفدوا علي المدينة من شتي الاقطار والارجاء . ويكفي للتدليل علي ذلك أن نذكر الحوار الذي رواه ثيوكريتوس (Theocritus) شعر بلاط بطلميوس فيلادلفوس في القصيدة الراعوية الخامسة عشر التى تصف أجنبيا ضاق بحديث امرأة ثرثارة من سيراكيوز بصقلية وكانت تسمى پراكسينوا(Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلا « أيتها المرأتان ! ألا تنتهيان عن هذه الثرثرة حتى لكأنكما زوج من الحمام ! إن سماع هذه اللهجة الدورية ذات الاسكنة ثقيل على أذنى ومضن لى حتي لينفد صبرى قبل نهايته » فأجابته پراكسينوا : « ياللعجب ! من أى أرض جاءنا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا ؟ وماذا يعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشترى عبيدك أولا قبل أن تأمر وتنهي فيهم — إعلم أن من تتحدث لهن وتصدر إليهن الأوامر هن من أهل سيراكيوز ، وأحب أن تعلم كذلك أننا من أصل كورنثي فنحن ، كما تعلم ، نتكلم اللغة البليبونيزية أسوة بأبناء

ملك كورنثه ، وأظن أنه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ! » .

ولا بد أنه كان بالاسكندرية لهجات أخرى كثيرة كانت تسمع رطانتها فى الشوارع والاسواق وعلى رصيف الميناء وفى الندوات الثقافية وحلبات السباق وساحات الالعاب الرياضية ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات ، كانت تعرف باللهجة المشتركة ـ كوينى ـ (Koinê) وهى اللغة التي تميز بها ذلك العصر الهيليني الثانى من عصر ما قبل الاسكندر ، وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الاخرى. وكان فى التقاء هذه الاجناس والشعوب بالطبع فى هذه البوتقة امتزاج كبير للثقافات وللأفكار الدينية ، وقد انتشرت في الاسكندرية عبادة ايزيس وسيرابيس وعمت كل ارجاء العالم اليوناني ـ الروماني ، وفى الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة ، وانه لمن حديث الخرافة أن يقال ان هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطليموس الثاني ، والحق انها صدرت تدريجيا كما ينتفع بها يهود الاسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيليني وكانوا أعرف باللغة الاغريقية منهم بلغتهم الاصلية . وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوريانية والارمنية واللغات الاخرى — وكانت الاسكندرية احد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة وادماج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب النزاع الاخير بين الوثنية والمسيحية .

وما انتصف القرن الثالث حتي صارت الاسكندرية اعظم مدينة في الشرق واصبحت مركزا تجاريا هاما فى العالم الاغريقي يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجند والمشتغلون بالزراعة والهندسة ثم السياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها — كل اولئك قصدوا اليها من كل حدب وصوب إما للاستقرار

فيها وإما لمتابعة سيرهم الى مصر الوسطى وبخاصة اقليم الفيوم الذى أحبه اليونان ورحبوا بالسكنى فيه واستغلال أراضيه بطرق علمية مستحدثة حتى أصبح من مفاخر البطالمة . وفريق من اولئك الاجانب رحل الى صعيد مصر واقاصى جنوبها ووصل بعضهم الى جزيرة الفنتين وتركوا من بعدهم فى سجل أوراق بردية تعرف « ببردى الفنتين » اثرا يبين حياة اولئك الاقوام وطرائق معيشتهم وعقود زواجهم ومدي اختلاطهم(١) — وهكذا كانت البلاد المصرية بفضل الاصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التى نهجها ملوك البطالمة قد تحول كثير من اراضيها البائرة الى مزارع مثمرة وتضاعفت غلات الارض وثمراتها فى كل مكان ، وكانت المنتجات الواردة من مختلف انحاء العالم والحاصلات المصرية تري على أرصفة ميناء الاسكندرية أو تتجمع فى مستودعاتها الملكية (Thesauroi) فالعاج وخشب الابنوس والذهب والتوابل كانت ترد من افريقية، ولم تنقطع عن المدينة حاصلات الهند وكان يباع الحرير الوارد من الصين فى الاسكندرية فى عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الاغريق الزيت والنبيذ والعسل والتين واللحوم الباردة والسمك المجفف والاسفنج وكانت الفواكه علي مختلف انواعها ترد من آسيا الصغرى وجزر بحر الارخبيل وكان القمح والشعير وما اليهما من غلات مصر تحمل فى النيل في مراكب الى سوق الغلال العظيمة فى الاسكندرية . وفوق ذلك فان المدينة نفسها كانت تقوم بصناعة مواد كثيرة من عطور وزجاج وكتان وبردى كانت تقوم مصانعه المختلفة في شتى ارجائها(٢)

---

(١) البردى المختار . جزء أول ، ويحتوي علي نبذ من هذه الوثائق توضح عقود الزواج والالتزامات التي تربط اطراف هذه العقود

(٢) وتلقي وثائق بردى زينون التي يجرى نشرها تباعا منذ ١٩٢٠ ، ضوءا على ما حظيت به المدينة من تقدم اقتصادي وتذكر الواردات اليها من مختلف اجزاء البحر المتوسط والضرائب التي كانت تجبى عليها

اهم معالم المدينة

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر ونقل اليها جثمان الاسكندر واتجه ملوك البطالمة الأولين الى ناحية فى السياسة، لاهى بالمصرية الصميمة ولا باليونانية الفجة، ركزوا جهودهم فى اظهار مدينة الاسكندرية فى ثوب من الحسن والبهاء يبهرون به ابصار العالم الاغريقى، فنمت المدينة بسرعة فائقة وقامت مبانيها تمتد من القصور الملكية على رأس لوخياس (Lochias) فى قطاع كان يسمى براخيوم (Bruchium) فى الجانب الشرقى من الميناء الشرقى، وبدت على جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح في أبهى حلة، وكانت أول الابنية العامة التى أقيمت من هذا النوع حتى عدت احدى عجائب الدنيا، وضع تصميمها مهندس كنيدى مشهور يسمى «ستراتوس» (Sostratus) واحتفل بافتتاحها فى أول عهد بطليموس الثانى وبوركت باسم الالهين المخلصين (Theoi Soteres) وهما بطليموس الاول وزوجته، وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين مترا وكان يشع منها ضوء قوي يرى على مسافة ثلاثين ميلا فى البحر، ويظهر أنها كانت تحتوي بالاضافة الى ذلك على شيء أشبه بمنظار مكبر لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للاشعة — وكان من معالم مدينة الاسكندية ضريح الاسكندر الذى عرف باسم سيما (Sema) وهى تحريف من كلمة سوما (Soma) الاغريقية بمعنى جسد، والى جواره، بلا ريب كانت تقوم مقابر ملوك البطالمة المتعاقبين من الآلهين المُخلصين وهما بطليموس الأول وزوجته ثم الآلهين الاخوين (Theoi Adelphoi) أي بطليموس الثانى وزوجته أرسينوى الثانية وهى أخته، والآلهين المحسنين (Eucrgetai) وهما بطليموس الثالث وزوجته، والآلهين المحبين لأبيهما (Philopatores) أى بطليموس الرابع وزوجته وهكذا. ثم كان هناك السرابيوم المشهور فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى، وتقوم فيه عبادة الاله الجديد سيرابيس الذي اصطنعه

البطالمة الأولون كى يكون وسيلة يوحدون بها الشعب ويوثقون بها الصلات(١) .

الاسكندرية مركز للثقافه

ولم ينس البطالمة حرصهم على مظاهر العظمة المادية لعاصمة ملكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها ، فقد اشتهرت قبل كل شيء بدار الحكمة او الأكاديميه ودار الكتب ، ويظهر أن الأولى كانت فى بادىء أمرها معبدا للتاسوع الالهي من أرباب العلوم والفنون (Muses) ، له رئيس هو سادن لهذه الآلهة ثم ما لبثت أن أصبحت جامعة كبرى أو على الأقل محفلا جامعيا أشبه باحدي كليات جامعتى أكسفورد أو كمبردج فى نظمها وتكوينها(٢)، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الانتاج العلمى والفكرى ، بل وتمنحهم مرتبات من خزانتها الملكية فى سخاء ، وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة استطاع علماؤها ان يتوفروا على أعمال البحث والتنقيب، لان التعليم والتدريس لم يكن عملا إجباريا فيها ، ولقد وجدوا فى المكتبة الملحقة بهم موردا عظيما من الكتب والمراجع فى متناول أيديهم يعتمدون عليه فى متابعة ابحاثهم .

ولقد عنى بطليموس الأول منذ أول الأمر بادخال الأدب الاغريقي إلى الاسكندرية ، وكان هو نفسه رجلا من رجال الأدب إذ كتب وصفا لحملات الاسكندر وأحاط نفسه بحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبغ عليهم من الحظوة والمودة ما حبب اليهم الاقامة فى الاسكندرية فقرب اليه علماء النحو أمثال زينودوتوس

(١) بيير جوجيه — «السيطرة والاستعمار المقدوني» ص ٢٧٨ — ٢٨١
P. Jouguet, Macedonian Imperialism pp. 278 - 281
وقد عدد في هذه الصفحات معالم المدينة وتقسيمها الي احياء خمس سميت باحرف الهجاء الاولى .

(٢) انظر مقال بل (H. I. Bell) في مجلة الآثار المصرية
(Journal of Egyptian Archaeology) vol. XIII, p. 176.

(Zenodotus) ، والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas) ، وعلماء الرياضة أمثال أقليديس (Euclid) ، وكان سخيا نحو هذه الشخصيات الفذة الممتازة بقدر ما كان لين العريكة ، وكان يختص ستراتون (Strato) بقدر من عنايته حتى أنه قدم اليه هدية قدرها ثمانون تالنتات(١) (نحو ١٨٫٠٠٠ جنيها) فكان يعرف تماما ، كيف يجزل العطاء لذوي المواهب فى سخاء ملوكى — ولكن ليس بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائة إلى الاسكندرية ، فلا بد من الاحتفاظ بهم فيها حتى يتركوا أثراً باقياً دالا على إقامتهم فى مصر ، فعمل على تهيئة الضمان الكافى بأن يحصل هؤلاء العلماء في الاسكندرية لا علي رفقائهم وزملائهم فحسب وإنما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراساتهم ، هذا فضلا عن عطف ملك مستنير ، وعندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجيا الى تلك الكعبة التى كانت تنتظر وفادتهم ، وكانت الاسكندرية فى تلك الأزمنة المضطربة ملاذاً يأوى اليه رجال الفكر ومستقرا للعمل المثمر وأخذ الناس يرحلون عن بلاء الاغريق التى عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب وكذلك رحلوا عن آسيا التى لم تكن الحياة مستقرة فيها الى « أثينا الجديدة » على شاطىء مصر الشمالى وقد اتخذت مقرا للعلوم وأصبحت عظمتها إرثا مشتركا للجميع ، وكان ملك مصر غيورا على تأييد هذه النهضة الأدبية وتعضيد القائمين بها خشية أن يسبقه فى هذا المضمار ملوك آسيا من السلوقيين او غيرهم فسارع بانشاء دار للحكمة ودار الكتب وقد بذّ تا زميلاتهما فى آسيا.

وهنا قد يعرض لنا سؤال وهو : من يستحق الفخر بأن ننسب اليه إنشاء هاتين المؤسستين ، أكان بطليموس سوتر أم بطليموس فيلادلفوس ؟ وانه لمن المستحيل علينا أن نجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة لأن النصوص القديمة متضاربة

(1) Diogenes Laertius, V, 3. 58.

فى أقوالها(١)،ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من هذه النصوص القديمة مايؤيد القول بأنه كان بطليموس الثانى — لقد أوضحنا المشاعر التى دفعت ببطليموس سوتر الى التفكير فى انشاء دار للحكمة ومكتبة ملحقة بها ، ولكن هذا العمل لم يكن من الأمور التى تتم فى يوم وليلة ، ويبدو أنه فى أثناء الجزء الأول من حكمه كان مشغولا بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه والانتقال من معركة لأخرى فتارة هو فى برقة وأخرى هو فى رودس او قبرص او آسيا الصغرى فلم يتح له من الفراغ او يجد من المال ما كان يتطلبه القيام بمثل هذا المشروع السلمى اما فى الشق الثاني من حياته فقد كان أكثر هدوءا ، فضاه فى استقرار ، وبعد أن أقام مُلكه على أسس ثابتة ودعائم قوية كان في استطاعته أن يكرس جهوده في كثير من السخاء الى المنشآت السلمية وصادف فى ذلك الوقت (٢٩٩ ق.م.) ان طلب اليه ديمتريوس الفاليرى (Demetrius Phalerius) ان يأويه بعد ان نفى من أثينا وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وفكر خصب عرف بالنشاط واشتهر بالعلم فكتب وصنف فى كل موضوع يمكن تصوره من تاريخ ونحو وسياسة وخطابة وأخلاق(٢) ولقد أكرم سوتر وفادته وانتفع بعلمه بأن وكل اليه الاشراف على دار الكتب ولا يمكن ان يكون معنى ذلك توليه وظيفة رسمية شبيهة بتلك التى تولاها مديرو المكتبة وامناؤها الذين خلفوه لأنه لم يكن لدار الكتب وجود حتى ذلك الوقت وكانت الحاجة ماسة الى شخص يقوم بتنظيمها وكان ديمتريوس أقدر وأصلح شخص للقيام بهذه المهمة الشاقة ، وبناء على مشورته اشتري بطليموس كتبا كثيرة كان من بينها كل ما كتب عن فن الحكم « والكتب » على حد قول ديمتريوس « اكثر شجاعة من رجال القصر على قول الحق للملوك»(٣). تلك هى الظروف التى نشأت

(1) Plutarch, Apophthegmata 189 d; Clement, Strom. I, 351.
(2) Diogenes Laertius V, 5, 80.
(3) Plutarch, Apophthegm. 189 d.

فيها المكتبة التى اصبحت محتوياتها لا تقل في نهاية حكم بطليوس سوتر عن مائتي الف مجلد ، ولما تولى فيلادلفوس نفى ديمتريوس هذا لأنه كان يشك فى اخلاصه وبذل الملك مجهودات جبارة في جمع الكتب من كل انحاء العالم الاغريقى وفى السنين الأولى من حكمه نقلت الكتب الى دار الحكمة وفى الحقيقة بدأ منذ ذلك الوقت وجود المكتبة الفعلي وينطبق هذا القول على دار الحكمة أيضا ، والمتفق عليه أن بطليوس الثاني يعتبر المؤسس للمكتبة ودار الحكمة(١) ومن الممكن أن التصميمات الاولى لتلك المؤسسة قد وضعت فى عهد سوتر الذى استمد الفكرة من اولئك العلماء الذين أحاطوا به ولكن فيلادلفوس هو الذى نفذ المشروع فحنى فخر نسبته اليه وكرس جهوده منذ تولى العرش « لمتابعة التقاليد الموروثة عن والده »(٢) وعلى ذلك يمكن أن نقول بحق أن بطليوس سوتر هو صاحب الفكرة فى انشاء المكتبة ودار الحكمة وابنه فيلادلفوس هو الذي أسسها واخرجها الى حيز التنفيذ .

وقيل أن بطليوس الثالث أصدر أمرا يقضى بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطىء الاسكندرية ما قد يكون معهم من الكتب وان يبعث بها الى دار الكتب ويتسلم أصحابها بدلا عنها نسخا رسمية (٣) ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وانما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الاخرى وأصبحت محتوياتها فى العصر الرومانى تعد بمئات الالوف من المجلدات .

وكانت دار الحكمة بالاسكندرية تقوم فى الغالب على أسس مقتبسة من انموذج اغريقى وكان يلتقي العلماء فى ساحاتها وابهائها لتأدية أعمالهم وللمناقشة فى

(1) Couat, Alexandrian Poetry pp. 11-12.
(2) Callimachus, Hymn, IV, 170.
(3) Galen ed. Kuhn, XVII, 1, 606.

الامور الهامة من درس وبحث واذا استطعنا أن نتصور ذلك المبنى الرئيسي الذى وصفه سترابون والأبنية الشاسعة فى خارجه وقد الحقت بالبناء الرئيسى ودار الكتب، وما كان بهذه المباني من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة ، أمكننا ان ندرك ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة ، ففى ظل الهواء الدفىء فى أفنيتها وفى كنف البهو غير المسقوف (Exedra) كان ينزل أولئك العلماء ضيوفا يأكلون وينامون فى تلك الدار ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيدا عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون على كتابة مؤلفاتهم التى ذاع صيتها وطبق الآفاق .

كان أدباء الاسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء ، ولكن ألوان الأدب التي تميزت بها الاسكندرية لا يمكن أن تقارن بما أخرجه اليونانيون من الأدب فى العصور الزاهرة الكلاسيكية (القديمة) ، ومع ذلك فكانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته ، ومن المسلم به ، أن طابع الأدب الاسكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع ، فقد أظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والمعرفة ما لم يستطع قراؤهم استساغته ، وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس(١) تسمي «الاسباب» تلقى لنا بعض الضوء علي طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالسا على مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كيما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة تدل على روح العصر ، وكان السكندريون قد طغت عليهم الي حد بعيد آداب العصر الزاهر اليونانى فيما يختص بأساليب الشعر وقوافيه وليتحقق الانسجام والتوازن وجهوا وجههم شطر التجديد فى الموضوع وطريقة المعالجة لما يعن لهم من موضوعات طريفة فكانوا باستمرار كمن يصب النبيذ الجديد فى زجاجات قديمة ، وفي بعض الأحايين لم يكن عملهم فى ذلك موفقا ، وتحتوي مقطوعة حكمية (epigram) من شعر كاليماكوس الذي كان يضرب الامثال

(1) Callimachus, Aitia, (P. Oxyr. XI, 1362).

فيه للناس على خلاصة روح الحركة الفكرية في الاسكندرية : « إني أمقت الملاحم ولا أوثر المطولات التي يتشعب فيها القول كما يفعل الكثيرون وأكره الغزل التقليدي في الشعر ولا أنهل من ينبوع ينهل منه الآخرون، وأكره كل ما يتعلق بجمهرة الناس وكثرتهم الغفيرة » وكان من آثار هذه النزعة في هذا الشاعر ان جاء بالشعر النفيس العالي القيمة والذي لم يبرأ من التصنع ، ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ، ومع ذلك فان أناشيد كالميماكوس وملحمة ابولونيوس الرودي تحتوي على مزايا حقيقية اذا قدرنا ما فيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخواطر مؤلفيها — وان تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الأثر فقدموا لنا في الاناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتوس نوعا جديدا وأسلوبا فذا في المعالجة لم يجاره فيه احد فيما بعد ، وان موضوع الحب الخيالي ، الذي عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستغلوه بقدر كاف في ذلك العصر ، كان مما أثر في مجري الادب الاوربي وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للأدب لم تقتصر على انتاجهم الخاص منه فان علماء دار الحكمة او «المحفل الجامعي» ان صح هذا التعبير وفقوا لاختراع فن النقد الادبي ، وان عملهم في هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فاننا مدينون لهم فيه بدين عظيم ، واذا كان من الثابت كما يؤخذ من أوراق البردي ان نصوص بضعة تقر من المؤلفين القدامى قد أصبحت في القرن الثالث قبل الميلاد محرفة بما أصابها من المسخ والتشويه ، فالى علماء الاسكندرية وأدبائها يرجع أكبر الفضل في اعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقي لدينا من مادة النصوص التي نقرأها اليوم ومن يدري فكم من نصوص الادب الاغريقي الذي تستمتع بقراءته اليوم كانت تعبث به أيدي البلى والدثور وتعدو عليه عوادي الزمن لولا ما قام به علماء الاسكندرية ونقادها من غيرة وجهد في البحث عن أصول ونصوص كتب ذلك الأدب الاغريقي الخالد ؟ ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت فى العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة فى علمى التشريح والجراحة وبزت نظائرها من المدارس الاخري بمراحل كثيرة، أما فى علم الأحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله فى العلوم الأخرى، علي ان دراسة علم الأحياء تقدمت فيها بلاشك بفضل حديقة الحيوان التى أسسها بطليموس فيلادلفوس، وكان أكبر نصر أحرزته فى ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا. وفى الاسكندرية سبق أرستارخوس (Aristarchus) العالم كوبرنيكوس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة ان الارض تدور حول الشمس وقاس اراتستينيس (Eratosthenes) قطر الارض ووصل في بحثه الى رقم لا يختلف عن طوله الحقيق الا بمقدار خمسين ميلا وكتب اقليديس (Euclid) كتابه المسمي «العناصر» وكان اريشيمديس (Archimedes) من بين الذين درسوا هناك. ولكن الجمود العجيب والخمول الذي اعترى الذكاء اليونانى قبل العصر المسيحي بقليل حال دون ان يوفق اليونان الي معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل ان هذا الجمود أدى بهم الى اهمال العلوم التي كشفوها من قبل.

حال المدينة فى أواخر عهد البطالمه

ولقد كانت الاسكندرية ميدانا لكثير من الاحداث الهامة فى مدى القرون الثلاث التى حكم فيها البطالمة مصر، ففى القرن الثالث قبل الميلاد اذ كانت قوة أسرة البطالمه على أشدها شاهدت الاسكندرية كثيرا من مظاهر النشاط السياسي والاحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب ابرز هذه المظاهر فى ذلك العصر، وهناك وثيقة بردية كشفت حديثا(١) تحتوى خطابا من وزير المالية ابولونيوس فى عهد فيلادلفوس الى وكيله زينون فى فيلادلفيا ينبئه فيه بوصول رسل معتمدين من ارجوس وسفراء من قبل الملك بيريساديس (Paerisades) ملك البسفور كيما يشاهدوا مناظر الفيوم وآثارها وهناك بعثة سياسية ثبت أنها

(1) Symbolae Osloenses, 1927, "Greek Sightseers in Fayum" by Bell.

اتت من روما واخرى من قرطاجه وثالثة من الهند، فقد أرسل الامبراطور البوذي المسمي أسوكا (Asoka) رسله إلى بطليموس الثانى لينصحوه ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت ، فهل استجاب لنصحهم ، وهل وجدوا في قلب هذا الملك المفتون بالنساء وإيثار المسرات وحب الترف والعظمة سامعا او مجيباً ؟ وعقب موت بطليموس الرابع (فيلوباتور) الذى انهمك فى اللاذ والمجون والفحشاء بدأ الحال يتغير وحدثت اضطرابات فى الاسكندرية عندما ظهرت امام الشعب حظية الملك الخبيثة وأخوه — بعد قتلها الملكة المحبوبة — يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون ، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم ، ولكن ثورتهم لم تنجح(١). وتاريخ القرن الثانى هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلي بين أفراد الأسرة المالكة وحروب أهليه كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ، والسكندريون — ولا ريب — قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر ، وفى عهد بطليموس الثامن الذي اشتهر رسميا باسم يورجيتيس الثاني والذي سماه المعجبون به من رعيته فسكون (Physkon) أي السمين نشبت الاضطرابات وقتل الملك فيها عدداً كبيراً من الوطنيين فنشأ عن ذلك تغيير كبير في أخلاق الشعب السكندرى، ولقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذي زار مصر فى هذا العصر فقال « كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان : العنصر الوطنى وهم المصريون وهو نشيط لبيب متحضر ، والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل ان يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وقلة كفايتهم ان يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندري وهؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس

(١) قد ذكر المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الحقبه باسهاب ، قصور ما كان يجري في البلاط الملكي من منافسات وما كان يقوم به شعب الاسكندرية من اضطرابات .

الأسباب ولو أنهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يونانيي الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونانيين(١)» ، ويقول بوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى، وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة — وهكذا لا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندرين في العصر المتأخر من حكم البطالمة بشيء من الاعجاب ، فكانوا في نظرهم متقلبين سريعي التأثر عنيدين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك الى اللهو ، وهم ثرثارون فيهم طلاقه اللسان ولذعه ، قليلو الاحترام للأديان ومع ذلك كانوا يظهرون تعصبا دينيا شديدا في بعض الأحيان، وكانوا دائما معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها في الهياج والشغب على الحكام فكانوا مدة قرن شوكة في جانب السلطات التي كانت مسئولة عن حفظ النظام .

وما وافى القرن الاول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر قد أشرف على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيرا حال البلاد الخاضعه لحماية الرومان ، وعندما ثار شعب الاسكندرية فى وجه الملك بطلميوس أوليتيس (Auletes) أو الزمار ، وكان ماجنا مبذرا ، أغرم بالزمر وأهمل شئون البلاد طرده شعب الاسكندرية الي المنفى ؛ ولكنه ذهب الى روما بحثا عن معين يُعيده الى عرشه المسلوب ، وأخيرا وجد فى شخص جابينيوس (Gabinius) قائد جند الرومان وحاكم الشام ضالته المنشودة ، فرشاه بالمال الوفير وفي نظير ذلك ساعده علي العودة الى بلاده بل واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأييد عرش الملك سنة ٥٥ ق.م. ، وفيما بعد ذلك بقليل أتي يوليوس قيصر الى مصر مقتفيا أثر بمبي المنهزم الفار بعد موقعه فرساليا عام ٤٨ ق.م. ، ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباتره السابعة إبنة بطلميوس أوليتيس السابق الذكر ، فتنته بذكائها وروحها وأساليبها التى أسهر المؤرخ

(1) Polybius, Book XXXIV, 14 De Alexandria, Aegypti Urbe.

بلوتارك في تعدادها والإشادة بها(١)، ولكن العلاقات بين قيصر وكليوباترا لم تمض دون أن يكدر صفوها شعب الاسكندريه وقواتها المحاربة ، فقد شق عليهم وجود قيصر بين ظهرانيهم وتدخله فى أمورهم ووقوفه من كليوباتره وأخيها الصغير وهو زوجها موقف الحكم ، ثم تطورت الأحوال وحوصر قيصر في القصر الملكي وشدد عليه الخناق اتباع أخيها ،وقد ساءت الظروف المحيطه بقيصر فترة من الزمان ،كان فيها يعاني مرارة الحصار وقلة الماء للاستسقاء وضعف القوات ، ولكن أنقذته قوات حليفة أتت من الشام يقودها مثريداتيس ، وفي أثناء القتال الشديد الذي نشب بينه وبين الثوار عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة باضرار جسيمة ، وخاصه الأجزاء القريبة من القصر الملكي وفيها أغنى الأبنية وأعظمها وقد عمد بعض الكتاب الى القول بأن أجزاء من المكتبة قد تهدمت وأحرقت كنوزها فى هذه الظروف ، ولعل الأمر قد اختلط عليهم فظنوا أن الكتب التى كانت على مقربة من رصيف الميناء أو مكدسة في مخازن في هذا المحيط والتى اشتعلت فيها النيران هى بعينها الكتب الموجودة في دار الكتب الكبري وليست بديلا أو فائضا كان قيصر ينوي أن يبعث به الى روما ، وعلي أي حال فلا يزال القول بحريق مكتبة الاسكندرية مفتقرا الى التأييد بعيدا عن الصواب .

توارى يوليوس قيصر عن الابصار فى مارس سنة ٤٤ ق. م. نتيجة تآمر عصبة من الجمهوريين المشفقين على الروح الجمهورية الحقة من نوايا قيصر في إعادة الملكية الى روما في أثواب فضفاضة ، وكان يتلمس السبيل ويتحين الفرص ويجس نبض الشعب الرومانى ليتعرف على مبلغ تقبله لذلك التغيير الذي لا تعرف مداه إذ حمل هذا السر العظيم إلى قبره بعد أن خر صريعا فى مجلس الشيوخ الروماني أثر طعنة من بروتس (Brutus) ، وقد آل الأمر الى أكتافيوس وأنطونيوس، فتوفرا

(1) Plutarch. The Life of Antony.

علي تنظيم إرث قيصر وتنفيذ مشروعاته . ثم بدت بوادر الخلاف بين الزعيمين وكانا قد اقتسما العالم الروماني فاختص انطونيوس بالشرق بما فيه مصر وانفرد اكتافيوس بالغرب وأصبح ناصره والمدافع عنه ضد الشرق وقد اتصل أنطونيوس بكليوباتره وأغرم بها ثم تزوجها ، فلم يرق ذلك في نظر روما التي أخذت تنظر اليه علي أنه مفتون وعبد لكليوباتره يريد أن يغلبها علي روما ويجعل من الاسكندرية عاصمة للعالم كله : لها السبق على روما ، فقام العالم الغربي يشن حربا على كليوباتره ونصيرها أنطونيوس ومن ورائهم جل قوى الشرق ووقعت الموقعة الهائلة فى اكتيوم سنة ٣١ ق.م. فانتصرت قوات روما وباء أنطونيوس بالخذلان وعاد هو وكليوباتره الى الاسكندرية ومعهما أسطول مصر البالغ ستين مركبا ، وكان قد انتهى من قبل ذلك عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين أنطونيوس وكليوباتره، ولما قضي الأمر بانتحار المحبين كليهما عقب هزيمتهما في الاسكندرية وفشلهما فى الاعتصام بها تم أكتافيوس مصر الي الدولة الرومانية وسجل ذلك فى الوثيقة المشهورة بأثر أنقره (Monumentum Ancyranum) بقوله وهو يشيد بأعماله « أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني »(١) ، وقد أصلح اكتافيوس أغسطس شئون الاسكندرية واصدر عفواه عن وأقر امتيازات المدينة ويقول المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) إنه « أمر السكندريين بألا يعولوا في تسيير شئونهم السياسية على مجلس الشورى (Boulê) نظرا لشكوكه فى أخلاق السكندريين المتقلبة» .

وهكذا شهدت الاسكندرية طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثا عظيمة تركزت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بجل عنايتهم فكان حظها من النجاح وافرا وتقدمها سريعا ، وإذ نرجو أن تكشف اعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزهو بها على غيرها من مدن مصر القديمة، ونرجو لها ان تستعيد سيرتها الأولى.

(1) Monumentum Ancyranum. Chapter 27 "Aegyptum imperio populi Romani adieci".